جمهورية مصر العربية

* مبادرة خلق عظيم *

احتفال وزارة الأوقاف المصرية بالمولد النبوي الشريف سنة ١٤٤٦هـ

(١)

أول قصيدة

في مدح المولد النبوي الشريف

قصيدة نادرة في المديح النبوي

بقلم العلامة

محمود محمد الطناحي

تقديم:

الأستاذ الدكتور / أسامة الأزهري

وزير الأوقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، سيد الأولين والآخرين، ورحمة الله تعالى للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا ربيع الأنوار قد أهلَّ، وأشرقت شمسه، وأظلتنا فيه أنوار الروحانية والسمو والفرح بمولد سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

وكلما تجدد هذا الشهر الكريم تحركت له أشرف ما في القلوب من معاني الحب والوفاء لسيدنا محمد ﷺ، والتخلق بأخلاقه الشريفة، والاستلهام من هديه ونوره، وامتلاء الوجدان تعلقًا وتخلقًا بأخلاقه المحمَّدية، وتفيض معاني البر والوفاء والصدق والأمانة والكرم والهمم العظام في التعلق بكل راقٍ وشريفٍ من الأخلاق والشيم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

ويسعدنا في وزارة الأوقاف أن نطلق مبادرة (**خلق عظيم**)، والمشتملة على عشرات من الأنشطة العلمية والروحانية التي يسعى بها أئمة مصر وخطباؤها في مساجد مصر شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، يقدمون لشعب مصر العظيم وللإنسانية كلها نورًا وحكمة، وإلهامًا وأخلاقًا، ينير البيوت والعقول، ويزكي الأنفس، ابتداء من شهر ربيع الأنور، ودون حد ولا نهاية.

إن احتفالنا بالمولد النبوي الشريف في شهر ربيع الأنور هو لبنة وخطوة في محور (بناء الإنسان) الذي هو مقصودٌ عظيمٌ من مقاصد الرسالة المحمدية في بناء الإنسان ودفعه إلى الله (عزَّ وجل)، وعمران روحه وقلبه معرفة وإنابة وخشية وطمأنينة بالله.

وقد اخترنا في هذا الإصدار مقالة علمية محكمة، تصلح أن تكون كتابًا مكتملًا، دبجته يراع العلامة المحقق محمود محمد الطناحي (رحمه الله)، في بحثه الدقيق المستفيض حول أول قصيدة أنشأها سيدنا العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، في مدح مولده الشريف ﷺ، لتكون بذلك أول تأليف وأول قصيدة في المولد النبوي الشريف، على منواله نسج أئمة الأمة من بعد وشعراؤها في الحفاوة والفرح بمولد خير خلق الله سيدنا محمد ﷺ.

وختامًا .. فإنني أتقدم بخالص التهاني إلى شعب مصر العظيم والأمتين العربية والإسلامية بالمولد النبوي الشريف المعظَّم، داعيًا الحق سبحانه أن يُخلقنا بالأخلاق المحمدية الشريفة ظاهرًا وباطنًا، وأن يوفقنا إلى كمال البر بديننا الحنيف ووطننا العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أسامة الأزهري

وزير الأوقاف

بسم الله الرحمن الرحيم (*)

جاء محمد بن عبد الله ﷺ على فترة من الرسل، فانتهت به الرسالات، وختمت به النبوات، وقد بُعث إلى الناس كافة؛ ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط ربه المستقيم.

وقد قضى ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة، بين مبعثه ووفاته يدعو الناس إلى التوحيد، ويبلغهم قرآن ربه الذي يشتمل على صلاح أمورهم في دنياهم وآخرتهم.

وكانت سنته الشريفة، أفعالًا وأقوالًا وتقريرًا هي المصدر الثاني للتشريع، وهي الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة: ١٥١)، وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ (البقرة: ٢٣١)، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣).

ثم كانت سيرته العطرة مجلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، وتصديق قول عائشة (رضي الله عنها): "كان خلقه القرآن"، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فقد اصطفاه من بين خلقه اصطفاء، وقرأ بعض القراء: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨)، بفتح الفاء على معنى: من خياركم، من قولهم: هذا أنفَسُ المتاع، أي أجوده وخياره – ثم هداه إلى الطيب من القول، والمرضي من السلوك، وعصمه من كل شبهة، وارتفع به عن كل نقيصة وبرأه من كل عيب، وحقه بالضياء، فكان الإعجاب به والثناء عليه مما تقتضيه الفطر السوية والطباع النقية إذ كان ﷺ صورة للكمال الإنساني.

هذا وقد كان الشعر أسبق من النثر في مديحه ﷺ والثناء عليه، فلئن كان النثر قد مد أسبابه في الحديث عنه عليه السلام، فيما عُرف بكتب السيرة النبوية والشمائل والخصائص، فإن ذلك لم يكن إلا بعد وفاته عليه السلام، بل وانقضاء عصر الراشدين، وذلك في نهاية القرن الأول، وأوائل القرن الثاني.

أما الشعر فقد صحبه ﷺ منذ صَدَعَ بأمر ربه، ولقي من إعراض كفار قريش وأذاهم ما لقي، ولعل عمه أبا طالب هو أول من فتح هذا الباب العظيم: باب المدائح النبوية، وإن كانوا قد طعنوا في كثير مما قال فإنهم قد سلموا له بقصيدته اللامية الطويلة.

يقول محمد بن سلام الجمحي: وكان أبو طالب شاعرًا جيد الكلام، أبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ:

وأبيَضَ يُسْتسقَى الغَمامُ بوَجهِه ثِمالُ اليَتامى عِصْمةٌ للأرامِلِ

(*) نشر هذا المقال في مجلة «الهلال»، سبتمبر ١٩٩٣م ثم أعيد نشره في كتاب مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب ١/٢٤٧-٢٥٨، ط دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

وقد زِيدَ فيها وطُوِّلَت، ورأيت في كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة، وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ولا أدري أين منتهاها. وسألني الأصمعي عنها، فقلت: صحيحة جيدة قال: أتدري أين منتهاها؟ قلت: لا. طبقات فحول الشعراء ص ٢٤٤.

ومن أقدم ما قيل في مديحه (عليه السلام) أيضًا قصيدة الأعشى الكبير ميمون بن قيس، التي مطلعها:

أَلَم تَغتَمِض عَيناكَ لَيلَةَ أَرمَدا وَعادَكَ ما عادَ السَليمَ المُسَهَّدا

وفيها يقول:

نَبِيٌّ يَرى ما لا تَرَونَ وَذِكرُهُ أَغارَ لَعَمري في البِلادِ وَأَنجَدا

لَهُ صَدَقاتٌ ما تُغِبُّ وَنائِلٌ وَلَيسَ عَطاءُ اليَومِ مانِعَهُ غَدا

وللنقاد ومؤرخي الشعر في هذه القصيدة مقال.

ثم كان شعراء الصحابة المشاهير: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد اختلط مديحهم له (عليه السلام) بالحديث عن الدين الجديد ومناوأة المشركين، ولم يكن هؤلاء الثلاثة وحدهم على الساحة، فقد ذكر الحافظ ابن سيد الناس اليعمري المتوفى ٧٣٢هـ نحوًا من مائة وتسعين صحابيًا وصحابية عطروا ألسنتهم بمدحه ﷺ، وجمع ذلك في كتابه سماه (مِنَح المدح) وهو مطبوع متداول.

وينقضي عصر الصحابة، ويداول الله الأيام بين الناس، فتذهب أيام وتأتي أيام، وتُثل عروش وتقوم عروش، ويتقلب الناس بين قديم وجديد وطارف وتليد، ولا زال ذكره الشريف يؤنس الغريب، ويطب الجريح، ويرد الضال ويهدي الحائر، فلم ينقطع هذا المدد النبوي الكريم على ألسنة الشعراء وقالة القصيد: شعرًا منغومًا، قد تتفاوت قيمه الفنية والتصويرية، لكنه في جميع أشكاله وضروبه يسري فيه هذا النفس المحمدي العظيم، طب القلوب ودواؤها، وعافية الأبدان وشفاؤها، ونور الأبصار وضياؤها.

وقد نهد إلى جمع شعر المدائح النبوية في مختلف العصور: الأديب العالم الجامع يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الفلسطيني المولد، المتخرج في الأزهر الشريف رئيس محكمة الحقوق في بيروت المتوفى سنة (١٣٥٠ هـ /١٩٣٢م)، وقد سمى عمله هذا المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، وهو عمل ضخم اشتمل على (٢٥٠٦٦) بيتًا، وطبع في أربعة مجلدات كبار.

ومن أنفس ما قرأت في هذا الفن: ما أخرجه الأستاذ العالم الدكتور محمود علي مكي بعنوان (المدائح النبوية) وقد صدر عام ١٩٩١م عن الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان. وجهات الحسن في هذا الكتاب كثيرة، فهو على وجازته قد عرض لتاريخ المدائح النبوية في فصول أربعة: الفصل الأول الرسول في شعر معاصريه، وهو ما يعرف بشعر الصحابة، الذي جمعه من قبل الحافظ ابن سيد الناس، على ما ذكرت، والفصل الثاني: المدائح النبوية في شعر الشيعة، والفصل الثالث: المولد النبوي والمولديات، ثم جاء الفصل الرابع: عن المدائح النبوية في العصر الحديث.

قصيدة العباس بن عبد المطلب:

والعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصيدته هذه خالصة في مديحه (عليه السلام)، وهي بذلك تباين ما قاله الشعراء الصحابة، إذ كان هؤلاء قد خلطوا مديحهم له (عليه السلام) بالدعوة إلى الدين الجديد والرد على المشركين والافتخار عليهم بوقائعهم معهم وانتصاراتهم عليهم، كما ذكرت من قبل.

وقد سكت الدكتور محمود علي مكي عن هذه القصيدة، فلم يوردها مع ما أورد من شعراء الصحابة – مع يقيني بأنه لا يخفى عليه مكانها – وكذلك يغفلها كثير ممن يكتبون عن شعر المدائح النبوية، فلم تحظ بما حظيت به قصائد حسان، وكعب، وابن رواحة: مع أنها قصيدة مرويَّة مذكورة الإسناد مع فخامتها الشعرية وشدة شبهها بالشعر الجاهلي، بل قل: إنها صورة من الشعر الجاهلي في جلاله وبهائه.

وإليك أيها القارئ الكريم نصُّ القصيدة، متبوعة بتوثيقها وشرحها وتحليلها: حدَّث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عن أبيه، عن يزيد بن عمرو الغنوي، عن زكريا بن يحيى الكوفي، قال: حدثنا عم أبي زَحْر بن حصن، عن جده حميد بن مُنهِب، قال: سمعت جدي خُريم بن أوس بن حارثة، يقول: هاجرت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مُنْصَرَفَهُ من تبوك، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال: "قل، لا يفضُض الله فاك"، فقال العباس:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ فِي الظِّلَالِ وَفِي ... مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ

ثُمَّ هَبَطْتَ الْبِلَادَ لَا بَشَرٌ أَنْـ ... ـتَ وَلَا مُضْغَةٌ وَلَا عَلَقُ

بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ ... أَلْجَمَ نَسْرَاً وَأَهْلَهُ الْغَرَقُ

تُنَقَّلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَـبَقُ

حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ الْمُهَيْمِنُ مِنْ ... خِنْدِفَ عَلْيَـاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الـ ... ـأَرْضُ وَضَاءَتْ بِـنُورِكَ الْأُفُقُ

فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النْـ ... ـنُورِ وَسُبْلِ الرَّشَادِ نَـخْتَرِقُ

غريب الحديث لابن قتيبة ١/٣٥٩.

فهذه أقدم رواية لقصيدة العباس بن عبد المطلب، إذ كان ابن قتيبة قد توفي سنة (٢٧٦).

وتلي هذه الرواية زمنًا رواية أبي القاسم الزجاجي المتوفى (٣٤٠)، قال: حدثنا إبراهيم الصائغ، قال: حدثني عبد الله بن مسلم بن قتيبة... ثم بقية السند السابق، اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي ص ٢٣٠.

وثالث الروايات: رواية الحافظ أبي الحسن الدارقطني المتوفى (٣٨٥) قال: حدثنا عبدان بن أحمد وأحمد بن عمرو البزار، وحدثنا محمد بن موسى بن حماد البربري، قالوا: حدثنا أبو السكين زكريا بن يحيى... ثم بقية سند ابن قتيبة، المعجم الكبير ٤/ ٢٥٢.

ورابعها: رواية أبي عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفى (٤٠٥) قال في كتابه المستدرك على الصحيحين ٣/٣٢٦ – ٣٢٧: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أبو البختري عبد الله بن شاكر، حدثنا زكريا بن يحيى... إلى آخر السند، وقال الحاكم: هذا حديث تفرد به رواته الأعراب عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون، وجاء في رواية الذهبي عن الحاكم في سير أعلام النبلاء ٢/١٠٢: "ومثلهم لا يُضَعَّفُون"، والتعقيب في كلتا الروايتين ذو دلالة، فهو يريد أن يؤكد الثقة بالحديث، إذ كان رواته من الأعراب، يعني الذين يجرون في أحاديثهم ورواياتهم على الصدق، فطرة وسليقة، وليسوا من المحدثين أصحاب الصنعة الذين تدور أحوالهم بين الجرح والتعديل.

ونأتي إلى آخر رواية من روايات الحفاظ، وهي رواية الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣) فقد رواه في كتابه الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ص ٤٤٩ – عن أبي طالب يحيى بن علي بن الطيب العجلي الدسكري عن أبي أحمد محمد بن أحمد بن الغطريف بن القاسم العبدي، عن يحيى بن محمد بن صاعد، عن زكريا بن يحيى... إلى آخر السند.

ثم تدور القصيدة بعد ذلك غير مسندة في كتب العربية، فتراها في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٨، والزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري ١/٢٧٥، والاستيعاب لابن عبد البر صـ ٤٤٧، والفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/١٢٣، وشروح سقط الزند لأبي العلاء صـ ٣٥٣، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ص ٣٠٨، وأمالي ابن الشجري ٣/١١٤، والشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض ص ٢١٨، والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ١/٣٥، وعارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي لابن العربي ١٣/٩٦، ومنال الطالب في شرح طوال الغرائب المجد الدين بن الأثير ص ٤٤٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير ٢/١٢٩، والجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة للبري ٢/١٢، والحماسة البصرية ١/٦١٠، وتفسير القرطبي ١٣/١٤٦، ومنح المدح لابن سيد الناس ص ١٩٢، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ٣/٥٥١، والسيرة النبوية لابن كثير ٤/٥١، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمي ٨/٢١٧، والخصائص الكبرى للسيوطي ١/٩٧، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي الشامي ١/٩٠، والمجموعة النبهانية في المدائح النبوية ١/٥٦.

ثم يأتي من هذه القصيدة البيت والبيتان في معاجم اللغة، ودواوين الأدب، شواهد على غريب اللغة ووجوه المعاني، منزلًا ذلك على ترتيب المواد والمقاصد.

ويبقى أن أشير إلى أن أبياتًا أربعة من هذه القصيدة نسبت إلى حسان بن ثابت – انظر ديوانه ص ٤٩٨ – ولا تصح هذه النسبة، وقد ردها الحافظ السيوطي في كتابه اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة١/٢٦٤-٢٦٥.

بحر القصيدة:

جاءت هذه القصيدة على البحر المنسرح، وتفعيلاته:

مستفعلن مفعولات مستعلن مستفعلن مفعولات مستعلن

مع ما تطيقه هذه التفعيلات من زحافات وعلل.

ويرى بعض الدارسين المحدثين أن النظم على هذا البحر قليل، لأن فيه عنتًا ومشقة، وقد قلَّ النظم عليه، وكاد يهجر لاختلاف موسيقاه عن جنس الموسيقى الشائعة الأوزان، ويرى بعضهم أن إيقاع هذا البحر خافت يكاد يكون كلامًا منثورًا، بل إن بعضهم تنبأ بأنه سينقرض من الشعر في مستقبل الأيام، وهذا كلام من لا يرتاح إلى هذا الوزن، وينفر منه بطبعه، فيجعل من ذوقه الخاص حكمًا عامًا، ثم هو كلام يرسل إرسالًا، دون مراجعة أو إحصاء، فإن النظم على هذا البحر شائع في الشعر الجاهلي، وفيما بعده إلى يوم الناس هذا، وإن لصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام) أُنْسًا بهذا البحر وولعًا، وقد أنشأ ديوانًا، أداره كله على هذا البحر، وسماه (من مقام المنسرح)، ثم لا يزال يتعاهده في شعره بين الحين والحين.

ثم ذكر العلامة عبد الله الطيب المجذوب كلامًا عاليًا حول هذا البحر المنسرح في كتابه الفذ: المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/١٧٥-١٩١، وذكر أن هذا البحر في الجاهلية قد شاع في فنَّي الرِّثاء المراد به النَّوح، والنقائض، وأنشد قدرًا صالحًا من الشواهد، ثم ذكر أن الخريمي الشاعر أنشأ قصيدة من هذا البحر، من مائة وخمسة وثلاثين بيتًا يصف فيها الفتنة ببغداد أيام الأمين والمأمون، وأنشد في كتابه بين النير والنور ص ١٦٩، هذا البيت:

وسَرَّت النفس أمسِ ذات الفرا شات التي رِيمُ جيدها صَنَمُ

ثم قال: "هذا بحر المنسرح فاعرفه: بحرٌ طروب إلى جارية وحشية عروب".

وأقول: حسبنا أن نذكر من هذا البحر رائعة المتنبي التي أولها – وهو مما قاله في صباه:

أهلاً بدارٍ سباك أغْيَدُها أبْعَدُ ما بانَ عنك خُرَّدُها

شرح القصيدة وتحليلها:

تبدأ القصيدة في روايتها المسندة، وفي سائر الكتب بهذا البيت:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ فِي الظِّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ

ولا ينبغي أن يظن أن هناك نقصًا؛ فإن الرواية مجمعة على هذا الاستفتاح، وهو استفتاح غريب حقًا، وهو دال على حالة شعورية عجيبة، فكأن الشاعر طوى أشياء كثيرة في صدره، قفز منها إلى مقصوده الأعظم وشاغله الأقوى، أو كأنه لا يحفل بما تعارف عليه الشعراء في عصره من استفتاح القصائد، فكأنه لا يحب أن يرد طريقًا مسلوكًا، ولو وقع مثل هذا البدء في شعر شاعر من القوم في زماننا هذا لكان لنقادهم فيه ضجيج واحتفال.

وقوله: "من قبلها" أي: من قبل الخليقة، أضمر لغير مذكور، والعرب تفعل ذلك توسعًا واختصارًا وثقة بفهم السامع، وقد جاء منه في القرآن والشعر ما لا يحصى كثرة، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٦)، وقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ (فاطر: ٤٥)، أضمر "الأرض" في الآيتين، وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ (الواقعة: ٨٣)، وقوله: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (القيامة: ٢٦)، أضمر "النفس والروح" في الآيتين، ومن ذلك إضمار "الخمر" في قول ابن المعتز:

وندمانٍ دعوتُ فهَبَّ نحوي وسلسلها كما انخرط العقيقُ

وقوله: "طبت في الظلال" أي في ظلال الجنة، حين كان في صلب آدم لما كان في الجنة، وهو قوله: "في مستودع" أي: في صلب آدم قبل أن يهبط إلى الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمسْتَقَرٌّ وَمُسْتَودع﴾ (الأنعام: ٩٨)، أي مستقر في الأرحام، ومستودع في الأصلاب.

وقوله: "حيث يخصف الورق" يعني حيث خَصف آدم وحواء عليهما الورق حين بدت لهما سوءاتهما، والخصف: ضمُّ الشيء إلى الشيء وإلصاقه به، ومنه قولهم: خصفتُ النَّعل، أي رقعتها.

ثُمَّ هَبَطْتَ الْبِلَادَ لَا بَشَرٌ أَنْـ ـتَ وَلَا مُضْغَةٌ وَلَا عَلَقُ

يعني هبوطه وهو نطفة في صلب آدم، لم يصر علقًا ولا مضغة.

بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ أَجْمَ نَسْرَاً وَأَهْلَهُ الْغَرَقُ

يعني في صلب نوح، كما جاء في التنزيل: ﴿وَءايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ المشحون﴾ (يس: ٤١)، والسفين: جمع سفينة، واستعمل الجمع في موضع الواحد، كقولهم: شابت مفارقه، وإنما هو مفرق واحد.

وأراد بنسر: الصنم الذي كان قوم نوح يعبدونه، وإلجام الغرق: كناية عن وصول الماء إلى أفواههم التي هي موضع اللجام.

تُنَقَّلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ

الصالب: الصلب، وهو الظهر، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والترائب﴾ (الطارق:٧)، والعالَم: بفتح اللام: قيل هو كل موجود سوى الله تعالى، وقيل: هم كل ذي روح، وقيل هم الإنس والجن والمراد به هاهنا: الإنس خاصة؛ لأن الذكر لهم، والطبق هاهنا: القرن من الناس؛ لأنهم كالطبق للأرض، يطبقون الأرض ثم ينقرضون، ويأتي للأرض طبق آخر، والمراد أنه ﷺ تنقل في أصلاب كريمة، وتناسخته أرحام مطهرة، فأدته زاكي الحسب نقي الأصول، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وتقلبك في السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٩)، قال: "من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبيًا".

حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ الْمُهَيْمِنُ مِنْ خِنْدِفَ عَلْيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ

المراد بالبيت هاهنا: الشرف والنسب، والمهيمن: الشاهد، وهو صفة هذا الشرف، أي حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك أفضل مكان وأعلاه وأرفعه من مجد خندف وسامي شرفها، وخندف: لقب ليلى، وهي امرأة إلياس بن مضر، وهو من أجداد النبي ﷺ والنُّطق: جمع نطاق، وهو في الأصل: ما تشدّ به المرأة وسطها فوق الثياب، ومنه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر (رضي الله عنهما)، وضرب هذا مثلًا في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته وعزه، فجعله في علياء، وجعلهم تحته نطاقًا له.

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الـ ـأَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأُفُقُ

هكذا يبدأ الشاعر بيته بالضمير المنفصل "أنت"، ومجيء مثل هذا الضمير في مثل ذلك الموضع لا يأتي إلا في فحولة شعر وجسارة شاعر، فإذا عدم تلك الفحولة وفقد هذه الجسارة عاد غثًا باردًا، وانظره في قول عدي بن زيد العبادي، في إحدى غرره الأربع، كما يقول ابن سلام:

أرواح مودع أم بكور أنت فانظر لأي حال تصير

وقد أدار النحويون على "أنت" في بيت عدي كلامًا كثيرًا، فابسط لهم العذر، ولا تظن بهم إلا خيرًا؛ لأنهم أصحاب صنعة ونظام، وقد أربكهم هذا الشاعر إرباكًا عظيمًا، بذلك الضمير في هذا الموضع، والشاعر الفحل مختال تيَّاه، يتلعب بالكلام كما يشاء!

وعلى أن استعمال هذا الضمير "أنت" في الشعر كثيرًا ما يدل على التحنن والأنس والود بين المخاطب والمخاطَب، وقد استعمله العباس في قصيدته هذه ثلاث مرات.

وأشرقت الأرض: إذا أضاءت وأنارت، ويقال: شَرَقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت، ويقال: ضاء المكان وأضاء، وضاءت النار وأضاءت، لغتان فاشيتان. قال الراجز:

قرِّب قلوصَيْك فقد ضاء القَمَر

والأفق: واحد الآفاق، وهي أطراف السماء ونواحيها التي مع الأرض، والأفق مذكر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءاهُ بالأفق المبين﴾ (التكوير: ٢٣).

وقال: "ضاءت بنورك الأفق" فأنَّث فعله حملًا على المعنى؛ لأنه أراد بالأفق الناحية، وقيل: إنه استعمل الواحد في موضع الجمع، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طفلا﴾ (غافر: ٦٧)، أي أطفالًا، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم: ٤)، أي ظُهَراء، وكقول الشاعر:

كلوا في نصف بطنكمُ تصحُّوا فإن زمانكم زمن خميصُ

أي بطونكم.

فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النْـ ـنُورِ وَسُبْلِ الرَّشَادِ نَـخْتَرِقُ

السُّبل: الطرق، جمع سبيل، واختراقها: السير فيها.

ويبقى بيت من القصيدة جاء من زيادات بعض الكتب، وقد جاء بعد البيت الرابع، وبعضهم يجعله آخر القصيدة. وقد روي هذا البيت بروايات ثلاث:

الرواية الأولى:

وردت نار الخليل مكتتمًا تجول فيها وليس تحترق

والرواية الثانية:

وردت نار الخليل مكتتمًا في صلبه أنت؛ كيف يحترق

والرواية الثالثة:

يا برد نار الخليل يا سببًا لعصمة النار وهي تحترق

وأضعف الروايات الرواية الثالثة، أما الأخريان فهما من أزكى الكلام وأشرفه، وأعلاهما عندي الرواية الثانية؛ لأن فيها صريح الدلالة على أنه كان سببًا لنجاة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل (عليه السلام)؛ ولأن الشطر الثاني فسر مكتتمًا في الأول، فضلًا عما في البيت من إحكام الصنعة الشعرية وتوهجها، وتأمل مرة أخرى "أنت" كيف جاءت في البيت كالمنارة، مضيئة عالية، ومجيئها بعد الجار والمجرور وقبل الاستفهام يحمل القارئ والسامع على أن يقف عندها هنيهة، يندِّي لسانه ويرهف سمعه تشريفًا وإجلالًا للممدوح ﷺ.

وبعد: فهذه قصيدة العباس بن عبد المطلب عم المصطفى، في مديحه وتعظيمه، أرجو أن أكون قد وفقت في تحقيقها وجلائها، ولفت الأنظار إليها.

وبأبي أنت وأمي يا رسول الله !.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

****